مشكلة بيروت لا تحل الا بعودتها الى كل لبنان

اقليم التفاح للتوطين وكانتون... للكاثوليك؟

لا تقسيم ولا ميثاق انما "هندسة" فوارق طبيعية

روت شخصية مقربة من الوزير وليد جنبلاط ان وفداً نيابياً لبنانيا كان في زيارة الى الولايات المتحدة الاميركية عندما تحدث اليهم احد المسؤولين في البيت الابيض عن القضية الفلسطينية وعلاقتها بالازمة المشتعلة على ارض لبنان. ومما قاله المسؤول الاميركي للوفد النيابي اللبناني ان قضية الشرق الاوسط لا تحل الا اذا حُلت القضية الفلسطينية والقضية الفلسطينية لا حل لها الا بايجاد موطىء قدم ثابت للفلسطينيين وموطىء القدم هذا لن يوجد الا في... لبنان.

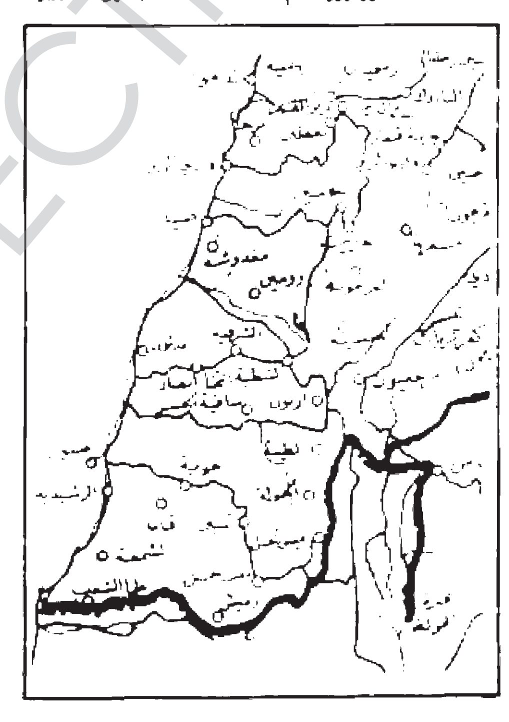
وسأل احد اعضاء الوفد هل يعني ذلك ان قضية الشرق الاوسط لا تحل الا بالتوطين فاجاب المسؤول الاميركي ببرود: "ليست التسميات هي المهمة انما المهم هو ان الفلسطينيين يحتاجون الى الاستقرار ولا يمكن ان يبقوا الى الابد شعباً شريداً طريداً". وقال النائب اللبناني: "ولكن لبنان بلد صغير وليس فيه اراض خالية من السكان حتى تعطى لتوطين غير اللبنانيين!". فاخذ المسؤول الاميركي من درج مكتبه خريطة ملوّنة للمنطقة وللبنان وقال دون ان يطلع الموجودين على تفاصيلها: "ينبغي ان تراجعوا جغرافيا بلادكم جيدا فان في بلادكم منطقة تدعى اقليم التفاح فلماذا لا تكون "حلة المشكل" بالنسبة الى الوجود الفلسطيني في لبنان؟".

وعاد الوفد الى لبنان وقد رسخت في اذهان اعضائه كلمة الاقليم وغابت كلمة "التفاح" بسبب جهل اكثرهم لجغرافيا بلادهم. فلما عادوا الى بيروت اخذوا يروون امام بعض زوارهم ان المنطقة المرشحة لتوطين الفلسطينيين هي اقليم.. الخروب. وبين الخروب والتفاح كانت المسافة الجغرافية غير بعيدة. وجاءت الاحداث الاخيرة في حرب المخيمات تعيد الى الاذهان كلام المسؤول الاميركي وتفتحت ذاكرة النواب اعضاء الوفد جيداً هذه المرة فتذكروا ان الاسم الذي سمعوه هو اقليم التفاح لا اقليم الخروب

حرب الكل مع الكل

كل هذه المعلومات استبعدت في الاسبوع الماضي عند البحث في النتائج التي وصلت اليها حروب المخيمات في صور وصيدا وشاتيلا وبرج البراجنة. والذي لوحظ في هذه الحروب ان جميع المخيمات سواء في الرشيدية (قرب صور) او في شاتيلا وبرج البراجنة (الضاحية وبيروت) تعرض فيها الفلسطينيون للحصار وسط انباء تتحدث عن اختراقات وتقدم للمهاجمين في اتجاه داخل المخيمات باستثناء مخيمي عين الحلوة والمية ومية في صيدا اللذين شهدا حركة معاكسة اذ تمدد الفلسطينيون من داخل المخيمات وانتشروا في المناطق المحيطة. وهذا دليل الى ان السيناريو الموضوع لحرب المخيمات يقضي بتقليص الوجود الفلسطيني من مختلف المناطق وتشجيع الهجرة نحو اقليم التفاح. علماً بان النقطة الاضعف بالنسبة الى الفلسطينيين هي مخيم شاتيلا الذي وصفه ناطق باسم حركة "امل" بانه في حكم الساقط عسكرياً سلفاً والنقطة الاضعف بالنسبة الى "امل" هي منطقة مغدوشة. والجهة التي تتمكن من السيطرة على مغدوشة تتحكم بالطريق الساحلية بحيث تستطيع ان تقطع الاتصال بين العمق الشيعي في الجنوب وقيادته في بيروت.

ويقول خبير في شؤون الشرق الاوسط ان كل ما يجري من تفاصيل على صعيد التحرك العسكري والسياسي في لبنان منذ بداية الازمة الى اليوم انما يتم وفق برنامج عام مدروس وعلى خريطة مرسومة سلفا، "فشعور رؤوسكم محصاة" كما يقول الخبير، ويضيف: ولا تسقط شعرة منكم الا بعلم رسّام الخرائط ومعد السيناريوهات. لذلك ليس مجرد صدفة ان تبلغ حرب المخيمات هذه الدرجة من العنف والتصعيد بحيث لم تعد قابلة للرجوع. وليس صدفة ان يكون الانتصار والامتداد في محيط صيدا والضيق الفلسطيني في بقية المخيمات. وليس صدفة ان تكون الحرب هذه المرة خلافاً لكل المرات السابقة بطبيعة التحالفات فيها وطبيعة المتحالفين. فهي ليست فقط حرب كل الفلسطينيين ضد كل الشيعة – على رغم اعلان "حزب الله" ان له موقفاً من هذه الحرب – بل هي في الواقع حرب الكل مع الكل عبر كل الفلسطينيين وعبر كل الشيعة. فهي حرب فلسطينية – لبنانية من جهة وحرب ايرانية – عراقية من جهة ثانية وحرب عربية – عربية من جهة ثالثة، فضلا عن انها حرب عالمية بالبدائل والوسائط، ولا ننسى دور الصراع العربي – الاسرائيلي بين نيران هذه الحرب.



لقد بدأت حرب المخيمات كأنها حرب الوصول الى المنافذ على البحر باعتبار ان الفلسطينيين بحاجة الى مركز لهم على شاطىء البحر الابيض المتوسط على غرار المنطقة المسيحية المطلة على مرفأ جونية والمنطقة الدرزية المتنفسة عبر مرفأ خلدة والشيعة عبر صور والشمال عبر طرابلس. فاذا تمكن الفلسطينيون من السيطرة على الطريق الساحلية خرق الحصار البحري والاطلالة على متنفس جديد. ولكن هذه الحرب ظهرت اكثر فاكثر بعد تطوراتها الاخيرة والفشل المتكرر لاجتماعات دمشق وغيرها انها حرب التناقضات وفك التحالفات. ومن مظاهر هذه التناقضات وقوف "جبهة الانقاذ" الفلسطينية الى جانب ياسر عرفات. وهذا التناقض له مايبرره في القاعدة التي اصبحت معروفة وهي ان الفلسطيني يكون كل شيء خارج المخيمات ويصبح كل فلسطيني فلسطينياً فقط داخل المخيمات اذ تصل القضية الى وجوده ومصيره فتنحل عقد الانتماءات والتناقضات والنزاعات الجانبية ويصبح الخطر الواحد جامعا لكل الاطراف والتناقض الآخر على هذا الصعيد هو ان سوريا تمد بالسلاح المقاتلين الشيعة ويتم في الوقت نفسه القصف المساند للمخيمات من مراكز في الجبل تقع ضمن دائرة المراقبة السورية. فضلا عن ان سوريا التي تحارب عرفات ينطلق الاعلام الفلسطيني ضد حليفتها "امل" من عاصمتها بالذات. والوجه الثالث للتناقضات يظهر في موقف الوزير وليد جنبلاط رئيس الحزب الاشتراكي الذي يقع في الحرج بين فك

تحالفاته مع "امل" من جهة وفك التزاماته بالقضية الفلسطينية وثورتها. ويؤكد المتصلون بالوزير وليد جنبلاط انه فعلا بين "شاقوفين" اي بين الحلفاء والحليف. حلفاء القضية الفلسطينية والحليف الاقرب الوزير نبيه بري. ولا تخفى اهمية منطقة جنبلاط في الجبل وهي الممر الوحيد للامدادات بين خزانات الاسلحة في سوريا ومراكز توزيعها في بيروت والمخيمات.

ومن وجوه التناقضات ايضاً في هذه الحرب بروز المشروع الليبي الايراني – السوري المشترك. والمعروف ان "امل" المتجانسة مع السوريين والايرانيين لا يمكنها ان تقبل بالجانب الليبي لاسباب مبدئية تختص بمصير الامام السيد موسى الصدر. كما ان الفلسطينيين المتجانسين مع ليبيا والمستعدين مبدئياً للحوار مع سوريا لا يستطيعون القبول بالجانب الايراني لاسباب تتعلق بتحالفهم مع العراق.

وتراكمت هذه التناقضات بحيث وصلت الى درجة من التعقيد في بيروت والجنوب عسكريا سالت معها دماء كثيرة وبعدت اكثر فاكثر امكانات الحلول الوفاقية بدون حسم من هذا الفريق هنا ومن ذاك الفريق هناك.

قضية الكانتون الكاثوليكي

والمتتبع لتطور قضية الوجود الفلسطيني في لبنان يلاحظ كيف دارت هذه القضية على مدار الطوائف المختلفة في لبنان. بدأ الفلسطينيون بعد ١٩٤٨ ضيوف المسيحيين في لبنان الذين فتحوا لهم بنداء من رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري بيوتهم ومعاهدهم ومعابدهم ومن ثم اصبح الفلسطينيون في الجنوب بعد تسلحهم في الستينات حماة الشيعة في الجنوب الى ان اصبحوا بعد سنوات جيش السنة كما صرحت المراجع الروحية السنية، ثم دارت الدورة واصبح الخلاف الذي كان فلسطينياً – مارونياً في بداية الاحداث عام ١٩٧٥ عندما أُطلق من الاشرفية "شعار لن يبقى فلسطيني على ارض لبنان" وتبنته آنذاك "القوات اللبنانية" كلها، واذا به يصبح صراعاً فلسطينياً – شيعياً وتقوم "امل" باتهام المسيحيين صراحة بانهم يساندون الفلسطينيين اعلامياً وعاطفياً على الاقل.

والواقع ان المسيحيين ليسوا وحدهم ضد مجازر المخيمات ولكن هناك قبولا عاماً عند مختلف الطوائف بايجاد حل ما للوجود الفلسطيني في لبنان من غير تعريض الشعب الفلسطيني لخطر الابادة من جهة ومن غير تعريض السيادة اللبنانية للخطر من جهة ثانية، فضلا عن الحرص الشديد لدى المسيحيين خاصة على ان لا يكون هذا الحل على حساب التوازن الطائفي في لبنان، وذلك كله انطلاقاً من اعتبار قضية الوجود الفلسطيني على ارض لبنان قضية انسانية من جهة وقضية تتعلق بمسار تطور الازمة في المنطقة كلها من جهة اخرى. وقد آلت الامور بعد ١٢ سنة من الحرب في لبنان وبعد انهيار الدولة وعجزها عن فرض هيبتها على المناطق التي تحولت الى وحدات مركزية للطوائف الى وضع من الامر الواقع اصبح فيه الفلسطينيون طائفة من طوائف الامر الواقع، الذي تقاسمت فيه الطوائف المناطق المختلفة وحولتها وحدات مركزية شبه مستقلة بامنها وادارتها الداخلية ومنافعها وخدماتها. واصبح الجهد منصباً على التنسيق بين هذه الوحدات مع الحفاظ على العاصمة بيروت كمركز مفتوح للجميع.

واذا كانت الوحدات المركزية للطوائف المارونية والشيعية والدرزية والسنية قد اكتملت او تكاد، فثمة غيرها قد يكون من المفيد (من المفيد للمؤامرة التقسيمية بالطبع) ان نُشق له "وحدات" مركزية في قلب هذا التشطير الذي قد يستهوي بعضهم في البداية كما يستهوي الدم لاحس المبرد... ويقول بعض المراقبين ان المخطط التقسيمي الذي يجهد منذ ١٩٧٥ لفرز سكان لبنان طوائف جغرافية فيقسمهم ويقسمه عملياً وبالاكراه ان لم يستطع تقسيمهم وتقسيمه قانونياً و"عفوياً" في المرحلة الاولى... هذا المخطط الذي لم يكتف بالتقسيم الطائفي الاسلامي – المسيحي فراح يعمّقه بتقسيم مذهبي سني – شيعي، قد لا يكتفي باقامة السواتر والجدران بين المسيحيين والمسلمين والمسلمين والمسلمين بل سيحاول فرز المسيحيين انفسهم مذهبياً كلما سنحت له الفرصة. ويضيف هؤلاء المراقبون ان معركة "مغدوشة" وهي مركز التجمع الكاثوليكي الثاني بعد زحلة، قدمت لمخطط التقسيم والفرز الطائفي والمذهبي مثل هذه الفرصة. فبعد معارك زحلة وتهجير شرق صيدا والآن معركة مغدوشة اصبح هناك جرح كاثوليكي كبير في لبنان. جرح وقضية. فهذه الطائفة عانت وتعاني الكثير من الحرب. وزعماؤها وفعالياتها يعرفون ويقولون ان هذه المعاناة جزء من معاناة اللبنانيين جميعاً، وليس فيهم من يريد مجرد البحث في فكرة التميز المذهبي بشكل من الاشكال على الاطلاق.

الا ان هذا لا يمنع كون بعض الاشاعات السياسية – ولو في نطاق محصور جداً – تحدثت هذا الاسبوع عن تخوف يساور بعض الدوائر والمحافل من قيام "المؤامرة الدولية – الاقليمية" التي رعت ولا تزال ضرب لبنان منذ ١٩٧٥ واختراع الفتن لابنائه، باستغلال جرح الكاثوليك اللبنانين وقضيتهم الوطنية النبيلة في محاولة لاغراء بعضهم باقتطاع كانتون له، بحجة ان اربع طوائف لبنانية قد اصبح لكل منها ما يشبه الكانتون، فلماذا لا يكون للروم الكاثوليك؟

وتلاقي هذه الفكرة – في حال طرحت جدياً، وجميع الشخصيات الكاثوليكية يؤكدون انها محض اشاعة ومن فبارك اجهزة الاستخبارات – تلاقي معارضة قوية في اوساط الكاثوليك انفسهم، فهذه الطائفة اشتهرت دائماً بمرونتها وليونة تعاملها مع الآخرين، وقدمت دائماً نخبة من خيرة الديبلوماسيين ووزراء الخارجية والوسطاء. وهي تعتبر من اكثر الطوائف قدرة على التنسيق بين الطوائف الاخرى على رغم، او بفضل، توزع ابنائها جغرافياً بين مناطق مختلفة النفوذ ومختلفة الاتجاه السياسي.

ومع النفي الصارم من المحافل والمراجع الكاثوليكية لجدية اي بحث في كانتون او وحدة مركزية كاثوليكية ينطلق العمل على تكوينها من معركة مغدوشة وتكون نقطة الثقل فيها زحلة امتداداً الى البقاع الغربي وربما بعض منطقة جزين، فان ذلك لم يمنع استمرار الاتصالات الحثيثة حول الوضع الدقيق في زحلة وجوارها. وامتدت الاتصالات من الاطار المحلي الى مراكز القرار الدولية ولاسيما المسيحية منها عبر الفاتيكان وانطلاقاً منه. وتقول المعلومات ان جانباً كبيراً من المهمات التي كان يقوم بها الموفدون البابويون في السابق كان مركزاً على اوضاع الكاثوليك في مناطق آلامهم.

ويقول ديبلوماسي فرنسي لـ"النهار العربي والدولي" ان المرحلة ليست مرحلة تقسيم كما انها ليست مرحلة عودة الى ميثاق ١٩٤٣، انما هي مرحلة هندسة الفوارق الواقعية عن طريق اقامة توازنات ثم اقامة تنسيقات بين الوحدات المذهبية القائمة حالياً في اطار الوطن الواحد...

ومع ان خريطة هذه الوحدات المركزية المتناسقة لم تكتمل بعد بسبب التداخل الديموغرافي بين بعض الاكثريات وبعض الاقليات في مختلف المناطق، الا ان هناك خطوطاً كبرى اساسية تتحكم بخريطة الامر الواقع:

فالوجود المسيحي الممتد من جزين الى الارز مروراً بزحلة يحتم ترسيخ الكيان المسيحي في المنطقة.

وفي حين تتضح معالم الوجود الشيعي في بعلبك – الهرمل فان استقرار الدروز في حاصبيا والشوف يجعل من هذه المنطقة امراً درزياً واقعاً. فاذا استقر اقليم التفاح للوجود الفلسطيني ولم تحبطه مقاومة لبنانية جدية، حتم ذلك اعادة النظر في توزيع بقية المناطق، كترسيخ الطابع السني لصيدا وترسيخ الطابع الكاثوليكي لزحلة وجوارها والطابع الارثوذكسي لمنطقة الكورة، دون ان يؤثر ذلك على الطابع الماروني الواضح منذ الآن في المتن وكسروان وجبيل حتى الارز. انما تبقى هناك مشكلة الاقليات المسيحية المقيمة في المناطق غير المسيحية ومشكلة الاقليات غير المسيحية (كشيعة جبيل مثلا) المقيمة في المناطق المسيحية. وتقول المعلومات ان الاتجاه في حل هذه المشكلة هو دفع هذه الاقليات الى مزيد من التجانس مع الاكثريات المحيطة بها اذا تعذر "دفعها" خارج بيوتها وارزاقها في الوقت الحاضر.

لقد اعيد الى الاذهان ان الخرائط التي رسمت لبيروت منذ بداية الاحداث حتى اليوم بلغت العشرات، من بيروت الكبرى الموحدة الى بيروت الصغرى المفتوحة الى بيروت المقسمة الى بيروت المحتلة الى بيروت المتميزة بين منطقتين. والملاحظ انه لم تصح حتى الآن صيغة من كل هذه الصيغ ولم تثبت فعاليتها. ويبدو ان العقبات التي كانت تحول دائماً دون نجاح اية صيغة للعاصمة بيروت كانت تتمثل في وجود غير اللبنانيين على ارض العاصمة ان بشكل علني وظاهر او بشكل مستتر، سواء الوجود الفلسطيني المسلح او الوجود السوري الظاهر والمستتر او الوجود الايراني عبر الحركات الاصولية او الوجود الاسرائيلي في وقت سابق او حتى وجود القوات المتعددة الجنسية. وتقول المعلومات ان فكرة توزيع لبنان على اللبنانيين والتي تقابلها فكرة توحيد العاصمة لكل اللبنانيين لن تلقى طريقها الى النجاح الا اذا اخليت بيروت من غير اهلها، اي من غير اللبنانيين. والواقع ان التكوين الديموغرافي لبيروت هو تكوين جامع لكل لبنان.. ولن تحل مشكلة بيروت الا بعودتها الى كل لبنان وتخليتها من كل ما ليس لبنانياً.

نبيل براكس

النهار العربي والدولي، ٨-١٤ كانون الأول ١٩٨٦، صفحة ٦، ٧